من جماليّات اللُّغة
في القرآن الكريم وفي شعر التُّراث

محمد السيد*

استعملتِ اللُّغة العربيَّة الكثير من الكلمات للتَّعبير عن الجمال وعن الحُسْنِ، بعضها: في المجال العامّ وبعضها في المجال الخاصّ. فالعامُّ ما تعارف عليه النَّاس والخاصُّ ما تُعورف عليه بين معدودين. فالصَّبَاحَةُ في الوجه، والحُسْنُ في الأدب، والحلاوة في العينين، والملاحة في الفم، والظَّرف في القدِّ، والرَّشاقة في الجسم، ومجمعُ المحاسن والكمال كلّه في الوجه وما فيه.

تتميَّز اللُّغة العربيَّة بجمالها كتابةً وأداءً ولفظًا.. فهي من أقدم اللُّغات وهي اللُّغة الَّتي تكلَّم بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبها نزل القرآن المعجز بلغته وفصاحته وعلومه وخبره. وما زالت اللُّغة العربيَّة هي الَّتي تتمدَّد في كلِّ العالم، وكان العصر الذَّهبيُّ لها مع انتشار الإسلام حيث يُقْبِلُ النَّاسُ العجم والعرب على تعلُّم اللُّغة الفصيحة لفهم القرآن وحفظه. فظهر جمال العربيَّة من نطق القرآن وقراءته وتلاوته مع أنَّ الشِّعر العربيَّ كان يُظْهِرُ الجمالَ في ألفاظه ومفرداته إنْ كان غزلًا أو رثاءً أو هجاءً. لكنَّ القرآن حين نزل جاء واضعًا لقواعد النَّحو والبلاغة والأدب ليس متمِّمًا إنَّما مصحِّحًا ومثبِّتًا ومقرًّا للبعض من القواعد النَّحويَّة والبلاغيَّة.

كان القرآن آياتٍ منزَّلةً من حول العرش الإلهيِّ فصارت الأرضُ بها سماءً هي منها كواكب.. وكانت الآيات ألفاظًا إذا اشتدَّت أمواجُ البحار الزَّاخرة. وإذا هي لانتْ فأنفاس الحياة الآخرة، إذا ذكرت الدُّنيا فمنها عمادُها ونظامُها، وإذا هي وصفت الآخرة فمنها جنَّتُها وصِرَامُها[1]. ألفاظ فيها معانٍ تروي الظَّامئ من ماء البيان وفيها رقَّةً تَسْتَرْوِحُ منها نسيمَ الجِنان، نورٌ تُبصِرُ به في مرآة الإيمان عذوبة السَّكينة والأمان، فتدَع القلب خاشعًا كأنَّه جنازةٌ ينوح عليها اللِّسان، وتَمْثُلُ للمذنب حقيقة الإنسان المفترق عن الحيوان فيُدْرِك بالقرآن وألفاظه أنَّه صنفٌ آخر من الإنسان الَّذي أراده الحنَّان المنَّان فيحسب حسابه ساعة إطباقه الأجفان أنَّه يجب أن يكون من أهل الإحسان لا أن يكون ممَّن يقال لهم مصيرك بما فعلتَ وقلتَ مثوى النِّيران.

لغة القرآن:

الأصل فيمن نزلت عليهم آيات القرآن أن تكون بِلغتهم.. قريش الَّتي خلَّصتْ لغتهم إلى التَّهذيب والتَّنقيح بعد تلاقحها من لغات ولهجات العرب كلِّهم لتكون اللُّغة الفصيحة الأمّ. ورسول الله(ص) قريشيّ لذلك تميَّزت قريش عن العرب بسَدانة الكعبة وسقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام.

بل إنَّ العرب والقبائل كلَّها لم تنازع قريشًا هذا الفضل. فكان يأتيها الجفاةُ

والأعراب من كلِّ حَدْبٍ وصوب دون أنْ يتعبوهم أو يضيِّقوا عليهم، فنزل القرآن بلغتهم. ولو نزل بغير لغة قريش لَما اجتمع له العرب بل لحاربوهم بالسَّيف فضلًا عن اتِّهامهم بالسِّحر والكهانة والكذب كما افْتَرت قريش على رجل منها لتصرف النَّاس عنه وعن الإصغاء إليه. ولو نزل القرآن بغير ما أَلِفه محمّد بن عبد الله الَّذي اسْتُرْضِعَ الفصاحة العربيَّة في بادية حليمةَ بنتِ سعدٍ والَّتي كانت تُعتبر أعلى فصحاء وبلغاء العرب. ولو نزل بغير هذه اللُّغة الَّتي كانت مهدًا عنده لتلقِّي القرآن لما استساغه ولما فهمه، ولكان ذلك مَغْمَزًا فيه إذ لا تستقيم لهم المقابلة حينئذٍ بين القرآن وأساليبه، بل لكانت كلُّ قبيلة ادَّعت أنَّها نزل على رجل منها قرآن، ولأدَّى ذلك إلى انشقاق الصَّفِّ العربيّ والعصبيَّة والشَّحناء والبغضاء إلى حال لا يلتئم عليه أبدًا.

إنَّ علاقة القرآن الكريم باللُّغة العربيَّة من خلال النَّحو علاقة جدليَّة متبادلة: نشأ النَّحو لخدمة القرآن، واستخدم النُّحاة من بعدُ آيَ القرآن أدلَّةً على قواعدهم النَّحويَّة، وحَفِظَ النَّحوُ اللُّغةَ العربيَّةَ من التجزُّؤ واللَّحْن والخطأ والاضمحلال. فأبقى القرآنُ اللُّغةَ العربيَّة لغة فصيحةً شريفةً جامعة للعرب كلِّهم على الرَّغم من تعدُّد لهجاتهم وعاميَّاتهم بل وجامعة بينهم وبين أهل القرآن من غير العرب.

توسُّع أغراض اللُّغة في القرآن الكريم:

حَمَلَ القرآنُ الكريم اللُّغةَ العربيَّة من إطارها الضَّيِّق إلى مجالات أرحب حيث كانت قبل نزول القرآن معروفة من خلال براعة الشِّعر أو النَّثر إنْ كان في شعر المعلَّقات أو خطب فحول البلاغة والكلام، لكنَّها لا تعدو أنْ تكون أغراض معيشة البداوة ووصف مرافقها، والتَّغنِّي على الأطلال، والتَّغزُّل بالعشق، والمديح أو إثارة النَّزعات والخصومات، ووصف البطولات والحماسة.. فجاء القرآن بلغته ليستعملها في:

1- تبيين العقائد الدِّينيَّة الَّتي جاء بها الإسلام والتَّوحيد وعوالم الغيب والثَّواب والعقاب والجنَّة والنَّار. وهذا ما لم يكن يفقهه أحدٌ من الجاهليِّين إلَّا ما ندر، فكان بعضهم النَّادر يتحدَّث عن الجنَّة والنَّار والغيب والحساب كتصوُّرات سمعها من كهنة أو قرأها في رقاق.

2- مع العقيدة الإيمانيَّة بيَّنت لغة القرآن أساليب الحياة وسعادتها، فبدأت بالإنسان نفسه كيف يكون ظاهرًا، كيف يتعامل مع غيره في المجتمع، وكيف تتعامل المجتمعات مع بعضها، وكيف تتعامل الدُّول مع الأفراد أو مع المجتمعات ليتَّسع إلى الأمور الخاصَّةِ بين النَّاس ابتداءً بالأسرة بين الزَّوجين ومع الأولاد والأولاد مع الأهل والجيران مع بعضهم لتتَّسع أكثر فَتَقْسِمَ النَّاس إلى مؤمنين وكافرين وفاسقين ومنافقين حسب أعمالهم، وهذا لم يكن من قبل.

3- يؤكِّد القرآن بلغته على الحثِّ على العلم فبدأ نزولًا بكلمة /إقرأ/ وفرَّق بين الَّذين يعلمون والَّذين لا يعلمون.

4- من جماليَّات ألفاظ القرآن أنَّها منعت وأماتَتْ ألفاظًا كانت مستعملة ببعض

الأقوال لكنَّها مبتذلة (إن كان في شعر المجون أو نثر الخلاعة) ومنعت ألفاظًا وجعلت محلَّها ألفاظًا أجمل غير ممجوجة والأمثلة كثيرة مثل: المرباع – النَّشيطة – الفضول. وإنِّي حين أقرأ قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أجدها أعلى وأحلى تعبيرًا عن الودِّ والحبِّ والوئام، بل حتَّى العلاقة الزَّوجيَّة بأسلوب جميل رائع، ولو عدت لكتب التَّفاسير لوجدت أنَّ المفسِّرين قد تكلَّموا كثيرًا فيها وكلٌّ اجتهد بتفسيره لأنَّها كلمات فضفاضة لا تحمل إلَّا المعاني الَّتي تحضُّ على الودِّ والرِّفق والسَّتر واللِّين والأدب والقرب. بينما الجاهليُّون (شعرًا أو نثرًا) كانت كلماتهم نوعًا ما تخصُّ نوعًا من العلاقة بكلماتهم ولا تدلُّ على معاني الودِّ المطلوب حاضرًا ودائمًا إن كان بعلاقة جسديَّة أو قلبيَّة.

5- جاء القرآن بلغته الفصيحة المشْوقة ذاكرًا لقصص السَّابقين بأسلوب شيِّق محبَّب، بل قد يجعل جزءًا من القصَّة في هذه السُّورة ليوافق الموضوع الَّذي يتكلَّم فيه، ثمَّ تجد جزءًا آخر في سورة أخرى ليوافق سياق موضوع يتكلَّم به ليعطي جماليات للقصَّة تكون مشاهدها موزَّعة حسب وقت نزولها وحسب سياق الحديث قبلها وبعدها لتضفي جمالًا لم يكن موجودًا من قبل، بل لا يمكن مقارنته بما كان من قبل من قصص حين يسمعها المرء يشعر فيها بالمبالغات والمغالطات ودون فائدة. أمَّا في القرآن فكانت موزَّعة لتؤدِّي دورًا جماليًّا ومفيدًا لكلِّ من يقرأها في كلِّ زمان ومكان فتكون قصَّة على سبيل التَّوعية.

6- كان للقرآن موسيقى جاءت به أحرف الألفاظ وجزالتها، سنتكلَّم عنها بعد قليل.

لست في كلماتي هذه أروم أن أبيِّنَ الفروق بين القرآن والشِّعر لأسباب: أوَّلها أنَّني لا يمكن أنْ أضع القرآن والشِّعر في موضع واحد، وأوجد الفروق بينهما، فهذا استخفاف بكتاب الله عزَّ وجلّ.

يقول أحدهم:

أَرَيْتَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرُهُ

إِنْ قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِن الْعَصَا

ثانيها لأنَّ هذا الموضوع طرقه كثيرون وكتب فيه البلغاء والفصحاء.

ثالثها أنَّني أريد إبراز بعض جماليات اللُّغة في القرآن والشِّعر التُّراثيّ لنعرف أهمِّيَّة لغتنا الفصيحة.

الشِّعر وأغراضه:

الشِّعر هو عمود الرِّواية: عليه مدارُها وبه اعتبارها، وقد كانت منزلته بين العرب ماهي، إذ يتعلَّق بأنسابهم وأحسابهم وتاريخهم وما يجري مع ذلك. حتَّى كأنَّه الحياة المعنويَّة لأولئك القوم المعنويّين، فلم يكن عجبًا أنْ يدور فيهم مع الشَّمس والرِّيح. ولم يكن من سبب في جاهليَّة العرب يبعثهم على وضع الشِّعر إلَّا بالمحامد والمعاير أو التَّغنِّي والحماس. وقصارى ما يكون من ذلك أنْ يتزيَّد شاعرهم في المعنى ويكذب فيه إذا هو حاول غرضًا أو أراد معنًى ممَّا تلك سبيله ولا يكون ذلك إلَّا في الأخبار الَّتي تلحق بالتَّاريخ، لأنَّ الشَّاعر موضع ثقة القبيلة ومصدر الرِّواية عندهم. مع أنَّ الكثيرين من

صغار الشُّعراء كتبوا أبياتًا أو قصائد ونسبوها لكبار الشُّعراء حيث أنَّ القول المشهور عندهم: "العزَّة للكاثر" فقالوا على ألسن شعرائهم ما لم يقولوه لادِّعاء الفهم والحفظ وأخذه عنهم الرُّواة.

لكن قبل أنْ أتحدَّث عن الوضع الَّذي يعطي بعض الجمال (على الرغم من الافتراء فيه) وكما كان يقال: أعذب الشِّعر أكذبه. أقول أنَّه اشتهر من قريش أربعة بأنَّهم رواة النَّاس للأشعار، وعلماؤهم بالأنساب والأخبار، وما كان قرشيًّا عند العرب فهو من طبقة مميَّزة والأنساب هي ما تهتمُّ بالنَّسب والتَّاريخ والآباء والأجداد والعمَّات والخالات إلى مبدأ الخليقة عربها وعجمها، وتهتمُّ أيضًا بالخطابة والحكمة والرِّياسة. أمَّا الأخبار فهي ما تهتمُّ بالمغازي والمعارك والقبائل ونشأتها وأخبار القصص السَّالفة والأقوام البائدة. هؤلاء الأربعة هم: مخرمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف[2]، وأبو الجهم بن حذيفة[3]، وحويطب بن عبد العزّى[4]، وعقيل بن أبي طالب[5].

كانت قريش تهتمُّ بجماليَّات الشِّعر فتأخذها وتتداولها وتنبذ رديءَ الشِّعر وهجاءه وبذيئه، بل كانت تعاقب شعراءها القليلين إذا هجا بعضُهم بعضًا، أمَّا النَّسَّابون منهم فكانوا يحقِّقون من يروي المثالب ويقع في أعراض النَّاس لأنَّ ذلك هجاء ساقط ويُسقطون الرِّواية الَّتي تشيع فيها قالة سوءٍ بأحد. وكانت القبيلة تزدري من لسانه الذَّمَّ والقدح بل إنَّ عقيلًا كان فترة يذكر مثالب النَّاس بحجَّة أنَّه يحذِّر منهم، فعادَتْهُ القبيلة وحقَّقوه، فانقلب عمَّا كان عليه خوفًا من كبار القبيلة. وإنَّ من أعداء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين يريدون تناوله بأهله يعيِّرونه بأخيه عقيل فيقولون: "تفعل مثل ما فعل أخوك من قبل".

أسلفت قبلًا أنَّ بعض الوضع فيه جمال وقيل: "أعذب الشِّعر أكذبه"، والكذب في الشِّعر إمَّا أنْ يكون منسوبًا من قائله لأحد الشُّعراء الفطاحل زورًا ليشتهر على ألسنتهم، أو ليحطَّ من مرتبتهم ومن قيمة القصيدة الَّتي نسب إليها البيت أو الأبيات، أو أنْ يكون كذبًا في النَّسَبِ أو التَّاريخ أو القَصص أو كذبًا على من يقال له فيكذب في الهجاء مثلًا وهو ليس فيه أو في المديح وهو ليس فيه. وليس هذا فحسب إنَّما نسبوا الشِّعر للجنّ وعقدوا لها الأخبار وتناولوها فيما بينهم، وكان هذا يحصل لهم في المواحش أو الفيافي المفزعة حيث لا ناس هناك، بل قد تكون وحوش فيأتي اللَّيل وفزعه فينبري من يعرف الشِّعر ولو قليلا فيصوِّر أنَّه رأى الغيلان وكلَّم الأغنام فجاوبته فوقفت الجنُّ أمامه تكلِّمه. بل إنَّ أحد الشُّعراء المشاهير واسمه سهل بن أبي غالب الخزرجيّ ادَّعى أنَّه رضع من الجنّ، وأنَّه صار منهم، ووضع كتابًا عنهم وأنسابهم وأشعارهم. من هنا وهناك نبغ بعض شعراء هذا الفنّ، فأسماهم البلغاء شياطين الشِّعر.

اشتهر من الوضَّاعين للشِّعر حمَّادُ الرَّواية (ت155هـ)، فإنَّه يضع من الشِّعر ليقرِّبه من بعض الأمراء زلفى، وجاء بعده

خلف الأحمر (ت180هـ) ونقل ما سمعه من حمَّاد وذهب مذهبه. وكان خلف داهية الشِّعر يعلم مذاهبه ومعانيه فيقلب الأبيات والأشعار فيها فيجعل صدر هذا البيت لغيره فيقلب المعاني حتَّى أنَّه وضع على فحول الشِّعر شعرًا وقصائد حتَّى أنَّ لاميَّة العرب للشَّنفريّ[6] هو الَّذي وضعها عليه ونسبها إليه، وأوّلها:

أقيموا بني أمِّي صدورَ مطيِّكُم

فإنِّي إلى قومٍ سِوَاكُم لأَمِيلُ

ووضع خلف أيضًا قصيدة على تأبَّط شرًّا ونسبها له أنَّه يعني بها خاله الشَّنفري.

يقول الأصمعي:

سمعت خلفًا يقول: أنا وضعت على النَّابغة قصيدة قال فيها:

خيلٌ صيامٌ، وخيلٌ غيرُ صائمةٍ

تحتَ العجاج، وأُخرى تعلُكُ اللُّجما

ثمَّ تاب خَلَف لربِّه واعترف بأشعاره الَّتي نسبها، فنزلت منزلته عند قومه لكنَّ الأشعار بقيت كما هي.

من اهتمام العرب بالشِّعر والشُّعراء أنَّهم إذا نبغ فيهم شاعر احتفلوا بنبوغه وما عرف أنَّهم احتفلوا بخطيب أو بكاهن يجيد السَّجع. فالشَّاعر كان ينطق باسم القبيلة ويذود عنها ويرفع شأنها معتزًّا بصفاتها الرَّائعة الحميدة. وكان الشَّاعر يختار أبحرًا أو تفعيلات تناسب مراده من القصيدة دون معرفته أو تخصيصه للبحر فلم يكن معروفًا ولا مقعَّدًا، فيختار حسب المناسبة. قيل لبشَّار بن برد: نسمعك في قولك:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً

هَتَكْنا حِجابَ الشَّمْسِ أوْ تَقْطُرَ الدِّمَا

كأنَّك تثير النَّقع أو تفاخر السَّماء، ونسمعك في قولك:

ربابة ربَّة البيت

تصبُّ الخلَّ في الزَّيت

لها عشرُ دجاجاتٍ

وديكٌ حسنُ الصَّوت

فنقول: أين هذا القول من ذاك؟! فأجاب بشَّار: "لهذا مكان ولهذا مكان، وما قلته لجارتي الَّتي تجمع البَيض هو عندها أحسن من (قفا نبك) عندكم". فالشِّعر له جماليَّة خاصَّة ورنَّة موسيقيَّة سحريَّة قد تفوق في وضوحها قوة السِّحر في الآلات الموسيقيَّة.

جماليَّات اللُّغة في القرآن الكريم:

لو قرأ المرء أجمل قصيدة أو مقطوعة أدبيَّة مرَّة أو مرَّتين أو ثلاث أو خمس أو عشر مرَّات لملَّها ثمَّ شعر أنَّها عذاب أو ملل، أمَّا كتاب الله فلا يملُّ ولا يتعب بل كلَّما قرأ المقطع أو الآية أو السُّورة مرَّة وجد فيها حلاوة غير سابقتها، واكتشف سرًّا جديدًا بل قد يقف عاجزًا عقله وفؤاده.

ألا تعجب من قول شخص لم يؤمن به ولا بمن نزل عليه حيث سمعه يقول: "والله إنَّ له حلاوة وإنَّ عليه لَطلاوة وإنَّ أعلاه لَمثمر وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه يعلو ولا يعلى عليه وإنَّه لَيَحْطَمُ ما تحته وما يقول هذا بشر"[7].

يتساءل أعلام اللُّغة العربيَّة دومًا عن السِّرِّ المتجدِّد في القرآن أين يكمن الإعجاز واللُّغة لغة وهي في متناول الجميع؟! ولماذا صَمَتَ الفصحاء في الجاهليّة والخطباء والقرآن ينزل ويسمعونه ويسترقون السَّمع إليه وقد فُسحت لهم السَّاحات والمنابر

ودُفعت لهم الأموال وخُصِّصت العطايا. يقول الإمام الجرجانيّ:[8] "ما هذا الَّذي تجدَّد في القرآن من عظيم المزيّة وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتّى أعجز الخلق قاطبة وحتّى قهر البلغاء والفصحاء ذو القدر وقيَّد الخواطر والفكر".

ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتَّبيين: "ولو أنَّ رجلًا قرأ على رجل من خطبائهم أو بلغائهم أو شعرائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبيّن نظامها ولفظها ومعناها وطابعها أنَّه عاجزٌ عن الإتيان بمثله".

ولهذا ظهرت حماقة مُسَيْلَمَةَ الكذَّاب حين أراد أن يحاكي القرآن باللَّفظ وعجز عن المعنى الَّذي لم يستقم له فقال: "إنَّا أعطيناك الجواهر فصلّ لربك وجاهر"، وقوله: "والطَّاحنات طحنا"، وقول: "الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب قصير وخرطوم طويل"، وقوله: "ضفدعة بنت ضفدعين..." لذلك أذلَّه الله أمام أصحابه.

هنا الكلام لا يعني أنَّنا نستخفُّ بأهل الأدب الفصحاء بالجاهليَّة أو بالشُّعراء أصحاب المعلَّقات وغيرهم وكانت خطبهم وأشعارهم مستودع بلاغة يشهد على فصاحتهم وعلى رهافة حسّهم وبلاغة شعرهم. فلو أخذنا مثالًا الخنساء كانت شاعرة جاهليّة ولها أشعار جميلة ذات حُسْن وبلاغة. ذكر غير مصدر ومنهم مصطفى صادق الرَّافعي من استدراك الخنساء على حسَّان بن ثابت في شعر أنشده بعكاظ، قال فيه:

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمعنَ بالضُّحَى
وأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدَةٍ دَمَا[9]
وَلَدْنا بني العَنقـاءِ وابْنَيْ مُحرِّقٍ
فأكرِم بنا خالاً وأكرِمْ بنا ابْنَما

فقالت له الخنساء: "ضَعُفَ افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع. قال: وكيف ذلك؟ قالت: قلت: لنا الجفنات، والجفنات ما دون العشر فقلَّلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر.

وقلتَ: الغرُّ والغرّة البياض في الجبهة ولو قلت البيض لكان أكثر اتّساعًا. وقلت: يلمعن واللَّمع شيء يأتي بعد شيء، فلو قلت: يشرقن لكان أكثر لأنّ الإشراق أدوم من اللَّمعان. وقلت: بالضُّحى ولو قلت بالعشيَّة لكان أبلغ في المديح لأنَّ الضَّيف باللَّيل أكثر طروقًا. وقلتَ: أسيافنا والأسياف ما دون العشرة ولو قلت سيوفنا لكان أكثر، وقلت: دمًا والدِّماء أكثر من الدَّم وفخرت بمن وَلَدْتَ ولم تفتخر بمن ولدوك"[10].

وطبعًا أكثر البلغاء بعده انتصروا لحسَّان بن ثابت بأنَّه لم يخطئ فيها وكتب الكثيرون في هذا.

وهذا لم يحدث مثله في آية أو حتّى كلمة في القرآن الكريم على الرغم من كثرة دواعي القوم للطّعن والمعارضة والتَّسفيه والانتقاد. بل إنَّ حوادث كثيرة تدلُّ على أنَّ القرآن له جمال وأسرار تجعل حتّى غير المؤمنين به يقف أمامه عاجزًا أو مُنْشَدِهًا.

إسمع هذه: كان النَّبيّ صلى الله عليه وسلم يومًا بجوار الكعبة يقرأ سورة النَّجم وعندما ختمها بآية السَّجدة سجد هو وصحبه الَّذين معه، وبلا شعور ومن شدَّة التَّأثُّر سجد المشركون معه ولم يعرفوا ماذا ولماذا.

جماليَّة موسيقى القرآن وأبعاد موسيقى الشِّعر:

إنَّ صياغة الألفاظ القرآنيّة وتآلف كلماته وتركيب حروفه وتتابع آياته وتنوّع موضوعاته، كلُّ ذلك يؤلِّف وقعًا قرآنيًّا خاصًّا وموسيقى لم تعهد في الشِّعر ولا النَّثر فليس له تفعيلات متكافئة وقواف متناظرة إنَّما هو نثر ليس كالنَّثر المعهود. وإنَّ هناك رنَّة موسيقيّة عند السَّامع قبل القارئ لها ترجيعٌ ونغمات لأوتار الرُّوح الإيمانيّة والإنسانيّة. هذه النّغمات تفعل فعلها عند الحزين وعند السّعيد وعند التَّقيّ وعند الشّقيّ وعند الصَّحيح وعند السَّقيم. بل إنَّ كثيرًا من الأمراض تساعد فيها حروف القرآن المسموعة والمقروءة بنغماتها الطَّبيعيّة الَّتي توافق الحسَّ الطَّبيعيّ تعالج عن طريق القرآن.

ورد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّه كان يقرأ القرآن وحين أتمَّ الْتَفَتَ فوجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم يستمع له بخشوع وإعجاب فقال له: "لقد أُوتيتَ مزمارًا من مزامير داوود، فقال له أبو موسى: لو علمت أنَّك تسمعني لحبَّرتُه لك تحبيرًا" أي لجوَّدته وأتقَنْتُه. فلذلك من كان مجوِّدًا للقرآن مرتّلًا يعطي الحرف حقَّه ويخرجه من مخرجه فإنَّه يؤثّر في النَّفس ويعطي ألقًا خاصًّا يزيد جمالًا كلَّما ردَّده. بينما لو لم يعط الحرف حقَّه ولَحَنَ فيه وأخرج الحروف عن مواضعها (وهو ما يسمَّى اللَّحْن وهو غير التَّلحين. واللَّحْن مذموم) فإنَّه يضيّعُ جمال الحروف وبعض معانيها.

ومن عجائب القرآن الكريم وإعجازاته أنَّ أكثر الفواصل فيه وأكثر الآيات تنتهي بحرف النُّون أو حرف الميم السَّاكنين (وهو ما يسمَّى التَّدوير) أي نهاية الكلام أو الفاصلة، والنُّون والميم أحلى حرفين في اللُّغة سماعًا ولفظًا وتطريبًا، لكن إذا أراد القارئ أن يجعل أكثر الحروف فيها غنَّة (تشبه النُّون والميم) فهذا يسمّى لَحْنًا وهو إخراج الحرف من غير مخرجه فيؤدّي إلى تخريب المعنى.

كلُّ الَّذين يدركون أسرار الموسيقى وفنونها وفلسفتها النَّفسيّة لا يرون في الفنّ العربيّ بجملته شيئًا يعدل هذا التَّناسب الَّذي هو طبيعيّ في كلمات القرآن وأصوات حروفه. وما منهم من يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفًا واحدًا. ويعلو القرآن على الموسيقى أنَّه مع هذه الخاصيَّة العجيبة ليس من الموسيقى.

ذكر السّيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" إنَّ ابن مسعود قال: "جوّدوا القرآن" والتَّجويد حلية القرآن والقراءة والتَّجويد وهو التَّحسين والإتقان والأداء. وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ وما أَذِنَ الله لشيء مَا أَذِنَ لنبيٍّ حسن الصَّوت يتغنَّى بالقرآن ويقول صلى الله عليه وسلم: "زيّنوا القرآن بأصواتكم".

وذكر سيّد قطب في كتابه "التَّصوير الفنّي في القرآن": "وحيثما تلى الإنسان القرآن أحسَّ بذلك الإيقاع الدَّاخليّ في سياقه ويتَّضح أكثر في قصار السُّور والفواصل السَّريعة ويتوارى قليلًا أو كثيرًا في السُّور الطِّوال. إسمع إلى سورة النَّجم: ﴿وَالنَّجمِ إذَا

هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلهَوَىٰ * إِن هُوَ إِلَّا وَحي يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلقُوَىٰ * ذُو مِرَّة فَٱستَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلأُفُقِ ٱلأَعلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ على وزنٍ واحدٍ وليست بنهاية واحدة لكنَّها تُحدِث في نفس السَّامع أثرًا. أيضًا مثلها في سورة القمر والحاقَّة والواقعة وعبس والشَّمس. لكنْ وكما قال الغزاليُّ في كتابه "إحياء علوم الدِّين" (باب: آداب السَّماع والوجد): "إنَّ لكلِّ نصٍّ قرآنيّ تأثيرًا معينًا فليس كلُّ محزون أو مهموم يتأثَّر بكلِّ القرآن بل لو قرأت عليه أو أمامه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أو ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فإنَّها لا تؤثِّر فيه فليس المقام مقامها. لكنْ لو قرأت عليه أو أمامه آيات تذكِّره بنعيم الجنَّة وسعادتها لأزحت الكثير من همِّه وألمه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

الكلام في هذا يطول فيكفي أنَّني تحدَّثت عن بعض جماليّة القرآن من خلال الألفاظ والحروف واللُّغة العربيَّة، وخصَصْتُ أكثر جمال الصَّوت والإيقاع وأسميته تجاوزًا: موسيقى. فلم يكن القرآن للموسيقى والتَّطريب إنَّما هو للفهم والتَّفسير والمعاني اللُّغويَّة والنَّفسيَّة وتأثير الكلمات ولفظها لإعطاء المعاني المرومة عند الله عزَّ وجلَّ وبالتَّالي للعمل به وبما به وبقراءته بأسلوبٍ محبَّبٍ، بأسلوب يجعل القارئ أو السَّامع يَنْشَدُّ وينجذب للكلمات ويتفكَّر فيها وبمعانيها ويبحث عن مقاصدها.

أمَّا بالنِّسبة للشِّعر فهو فنٌّ من الفنون الجميلة مثله مثل التَّصوير والموسيقى والنَّحت، وهو غالبًا يخاطب العاطفة ويستثير المشاعر والوجدان، وهو جميل في تخيُّر ألفاظه جميل في تركُّب كلماته جميل في توالي مقاطعه وانسجامها بحيث تتردَّد ويكرِّر بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغمًا منتظمًا، فالشِّعر صورة فنِّيَّة من صور الكلام تعبِّر عن عواطف قائلها أو عقلانيَّته.

الشِّعر له نواح عدَّة للجمال أسرعها إلى النُّفوس ما فيه من جَرْسِ الألفاظ وانسجام في توالي المقاطع وتردُّد بعضها بعد قدر معيَّن منها وهو ما نسمِّيه موسيقى الشِّعر.

ويستمتع الصِّغار والكبار بما في الشِّعر من موسيقى ورنَّات صوتيَّة بل إنَّ ابن سينا[11] ذكر هذا في أبواب مفصَّلة حيث تحدَّث عن الرُّوح والتَّأثيرات عليها فذكر أنَّ الرَّضيع يتأثَّر بأصوات أمِّه وهي تهَدْهِدُه وتغنِّي له لينام فيهدأ لدى سماع التَّرنيمات لأنَّ طبيعة الأصوات واهتزازات الحروف من طبيعة الرُّوح الَّتي يتمتَّع بها الصَّغير والكبير. وابن سينا كان طبيبًا جسديًّا وروحيًّا، وكتب في موسيقى الشِّعر، وتأثير الشِّعر على الرُّوح والنُّفوس في كتابه "الشِّفاء"، وفي كتابه "مجرَّبات ابن سينا الرُّوحانيّة".

كان القدماء من علماء العربيَّة لا يرون في الشِّعر أمرًا جديدًا يميّزه عن النَّثر إلّا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي. وكان قبلهم أرسطو في كتاب أسماه "الشِّعر" يرى أنَّ الدَّافع الأساسيّ للشِّعر يرجع إلى علَّتين:

أولاهما غريزة المحاكاة أو التَّقليد، والثَّانية غريزة الموسيقى أو الإحساس بالنَّغم، ثمَّ بدأ النُّقَّاد في العصور المتأخِّرة يرون في الشِّعر أمورًا أخرى يعبِّرون عنها بالصُّور والأخْيلة والعاطفة والانفعالات ومنهم من يُعدّ الشِّعر انفعالًا يفتعل فيه العقل والتَّفكير.

لكنَّ الشِّعر بألفاظه كان قائله يختار كلمات مألوفة وحروفًا فيها تقارب في اللَّفظ والوزن. وحين تحدَّث أهل البلاغة عن ألفاظ الكلمات الشِّعريَّة امتدحوا القصائد ذات الألفاظ المتقاربة الحروف واشترطوا في الفصيحة منها أنْ تكون خالية من تنافر الحروف، واستشهدوا بكلمة قالها امرؤ القيس يرونها شنيعة في لفظها قاسية في معناها:

وَفَرْعٍ يَزِينُ اَلمتنَ أَسْودَ فاحِمٍ
أَثِيثٍ كَقِنْوِ النّخلةِ الُمتَعَثْكِلِ
غدائِرُه مُسْتَشْزِراتٌ إلى العُلا
تَضِلّ العِقاصُ في مُثَنَّى وَمُرْسَلِ

وكتب في هذا الموضوع الكثير من البلاغيِّين منهم ابن جني[12] في كتابه "سرُّ الصِّناعة" وورد أنَّ امرأ القيس قال:

رُبَّ جَفْنَة مُثْعَنْجِرَة وطَعْنَةٍ مُسْـ
ـحَنْفِرَة تبقى غداً بِأَنْقِرَة.[13]

وعدّ البلاغيُّون أنَّ هذه الألفاظ بعيدة من جرس الأذن وموسيقى الشِّعر ولو أنَّ لها معاني جميلة.

وقال أبو تمَّام:

قَدْ قُلْتُ لمَّا اطلَخَمَّ الأَمْرُ وانْبَعَثَتْ
عَسواء تَالِيةً عُبْساً دَهارِيسَا[14]

والأمثلة كثيرة عند البلاغيِّين على الشُّعراء الَّذين أقحموا في أبياتهم بعض الكلمات الَّتي تفقد الموسيقا من خلال لفظها مع بلاغة معناها وقلَّة ورودها.

ومن بعدُ نَهَجَ الخليل بن أحمد في عروضه نهجًا خاصًا في تفعيلات الأوزان الشِّعريَّة ليدلَّ على أوزان ألفاظ الأبيات وسمَّاها أبحرًا على الرغم مما انتقده من جاء بعده.

ولست أريد الحديث عن هذا بل هدفي الحديث عن أبيات كانت لها رنَّة موسيقيّة في أذني وآذان الكثيرين حتّى أنَّها اشتهرت على ألسن المتغنِّين لجمال الموسيقى فيها وفي ألفاظها قبل ترنيمها وغنائها حيث تستريح الأذن وتطمئنُّ النَّفس عند سماعها أو إنشادها:

ريمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ
أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ
لَقَد أَنَلتُكَ أُذناً غَـيرَ واعِيَةٍ
وَرُبَّ مستمع وَالقَلبُ في صَمَمِ

أو قوله الجميل الرَّائع:

سَلو قَلبي غَداةَ سَـلا وَثابا
لَعَـلَّ عَلـى الجَمـالِ لَهُ عِتابا
وَكُنتُ إِذا سَأَلتُ القَلبَ يَومًا
تَوَلّى الدَمـعُ عَـن قَلـبي الجَوابا
وَما نَيلُ المَطالِبِ بِالتَـمَنّي
وَلَكِـن تُؤخَـذُ الدُنيـا غِلابا
وَما استَعصـى عَلى قَومٍ مَنالٌ
إِذا الإِقدامُ كـانَ لَهُمْ رِكـابا

ولو عدنا للشِّعر الجاهليّ وجمال موسيقاه فهو كثير، يقول المرقّش الأكبر وهو جاهليّ:

هلْ بالدِّيارِ أنْ تُجِيبَ صَـمَمْ
لو كانَ رَسْمٌ ناطِقٌ كلَّمْ

الدَّارُ قَـفْرٌ والرُّسُـومُ كَمَا
رَقْشٌ في ظَهْرِ الأديمِ قَلَمْ
النَّشْر مِسْك، والوُجُـوه دَنا
نيرٌ، وأَطْـرافُ البَنَـانِ عنمْ[15]

يقول مؤرِّخو الأدب في شأن هذه القصيدة إنَّها من نادر الشِّعر الَّذي بُدِئَ فيه الرِّثاءُ بالغزل. لكن له موسيقا خاصة.

وهناك بحور عروضيَّة صعبة أو غير معتبرة هجرها الكثيرون من الشُّعراء مثل بحر المتدارك الَّذي منه أبيات الموشَّح الحُصَريّ (أو بحر الخبب):

يَا لَيْلُ الصَّبُّ مَتَى غَدُهُ
أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ
أَسَـفٌ للبَـيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد غنَّاها الكثيرون مع هجرها من البلاغيّين، لكن جاء حديثًا من كتب مثلها أو بحرها. جاء بعده شوقي فنظم قصيدة على نهج الحصريّ جاء فيها:

مُضناك جفاهُ مَرْقَدُه
وبكـاه ورَحَّـمَ عُوَّدُهُ
حيرانُ القلبِ مُعَذَّبُهُ
مَقْروحُ الجَفْنِ مُسهَّدُهُ

أجمعت الرِّوايات أنَّ الشِّعر العربيَّ كان ينشد. كان ينشد في أسواق الجاهليّين فيهزُّ قلوب السَّامعين ويطرب القوم، بل إنَّه أنشد أمام النَّبيّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء إنْ كان مدحًا أو فخرًا أو تحميسًا وشدَّ همم، ويقلّ شعر الزَّجل والغناء غير الموزون لأنَّه للجواري والقيان ومجالس المجون. وبعد عصور حين كثر الشِّعر وكثر التَّخليط فيه صار لا بدَّ من فصل الشِّعر الفصيح عن النّظم الَّذي يراد به الغناء والإنشاد. وبرع الأصفهاني في كتابه (الأغاني) في تمييز الجيد من الشِّعر من الرَّديء والسَّقيم.

ثمَّ جاء بعد الموسيقى الإنشاديّة في الشِّعر الموشَّحات واشتهرت الأندلسيّة منها وغنَّاها المغنّون والمغنّيات، وصارت على الألسن تغزُّلًا بأيَّام الدُّول والأماكن:

جادَكَ الغَيثُ إذا الغَيثُ هَمى
يا زَمانَ الوصـلِ بالأندَلُسِ
لم يكن وصْـلُك إلاّ حُلُمًا
في الكرى أَو خِلسة المختلِسِ

لكنَّ ابن المعتزِّ[16] وهو من أواخر القرن الثَّالث الهجري له موشّحة:

أيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتكى
قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَعِ

وابن المعتزِّ من شعراء المشرق وليس الأندلس، مع ذلك تُذكر مع موشَّحات الأندلس.

وصار للموشَّحات قبول عند النَّاس أكثر من الأشعار القديمة ذات الأوزان الصَّعبة والمعاني الخشنة. ولمّا شاع فنُّ التَّوشيح في جمهرة العرب وخاصَّة الأندلس لسلاسة الموشَّحات وترصيع أجزائها، بدأ ينتشر فنٌّ جديد هو الزَّجل الَّذي انتظم بمعان جميلة تتَّسم بالبلاغة والفصاحة، وأوَّل من أبدع في هذا أبو بكر بن قزمان، وعُدّ إمام الزَّجّالين. ودخلته ألفاظ العاميّة ولم يعد يُصنَّف مع الشِّعر الفصيح، مثال عليه:

مالك ومالي تعتب عليَّه
مستفعلاتن مستفعلاتن
اشفق بحالي يا نور عينيَّه
مستفعلاتن مستفعلاتن

وأشكي لمين نار الهوى
قلبي انكوى قلبي انكوى

وكما نوَّهنا من قبل أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يستمع للإنشاد فاستمع لإنشاد وشعر الخنساء وطرب لشعرها، وقال لها: "هيه يا خِنَاس". واستمع لكعب بن زهير حين مدحه مبتدئًا بأبيات غزليّة:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ
مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُفدَ مَكبولُ

وبعد انتهاء كعب من القصيدة خلع النَّبيّ بردته وألبسها لكعب إكرامًا له. وكان حسّان دائمًا حاضر الذَّاكرة في الشِّعر في مجلس رسول الله بل أحيانًا يطلب منه أن يقول الشِّعر.

الحديث بهذا جميل وشيّق والجمال يجذب بعضه الآخر. ووقوفنا المطوَّل عند موسيقى الشِّعر لا يعني أهمِّيَّته وتفوُّقه على موسيقى القرآن، فذلك يتمثَّل بإنشاد وغناء وتطريب وزجل، والقرآن يتمثَّل بترتيل وتلاوة مع خشوع وتفكُّر واهتمام وتدبُّر.

البلاغة في القرآن الكريم

القرآن كان وسيبقى معجزًا بألفاظه وأسلوبه وحين جاء علماء القرآن من بعد نزوله بحثوا علم اللُّغة الفصيحة فيه ودرسوا العناصر البلاغيّة في القرآن الكريم الَّتي تميِّز الكلام البليغ. وهل هناك أبلغ من كلام الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فصِّلت – آية 41،42).

وكتب الكثيرون من علماء اللُّغة في بلاغة إعجازه وإعجاز بلاغته، وكان أوَّل من كتب فيه وأسماه "علم البلاغة" الإمام عبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) حيث قال: "النَّظم البليغ أنْ يوضع الكلام موضعه الَّذي يقتضيه علم النَّحو، والعمل وفق قوانينه وأصوله، ومعرفة مناهجه فلا يزاغ عنها ولا يخلُّ برسومه الَّتي رسمت على وجوه لكلِّ باب، بل وإنَّه يعرف فيه موضع الفصل من الوصل فيعرف ما حقّه الوصل وما حقّه الفصل بل وإنَّ موضع الواو لا يمكن وروده بفاء، وموضع الفاء لا يرد بـ(بل)، وموضع إنَّ لا يرد بـ(أنَّ)" من كتاب دلائل الإعجاز.

إنَّ أساليب القرآن متعدِّدة متنوِّعة وبالتَّالي فبلاغته متعدِّدةٌ متنوِّعةٌ منها التَّشبيه والتَّمثيل والإيجاز والإطناب والتِّكرار. نمثِّل ذلك:

يقول تعالى في مدحه تمثيلًا: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.

فإنَّ أهل الجنّة يُسقون من رحيق مختوم وهو ألذُّ الأشربة، بل وإنَّ آخر هذا الشَّراب بالإناء مسك أو طيب كطيب المسك، والمسك عطرٌ لا يشرب لكنَّه ختام الشَّراب يدلُّ على محبَّة شُرب أوَّله ليصل الشَّارب لرائحة المسك وطيب الطَّعم.

ومن بلاغات القرآن استعماله للتَّخييل أو التَّخيُّل فإنَّ القارئ يتخيَّل التَّشبيه الَّذي قاله فينزل القرآن، خذ مثلًا: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ يسمَّى هذا عند البلاغيّين: تشبيه المجهول بالمجهول لتكون الصُّورة أبلغ.

شجرة الزَّقوم: شجرة تنبت وسط النَّار وهو غيبٌ عنَّا، وطَلْعُها كأنَّه رؤوس الشَّياطين وهي غيب عنَّا ولا نعرف صور الشَّياطين لنعرف رؤوسها ولا ما شُبِّه بها. ونعلم أنَّ تشبيه غيبٍ بغيبٍ يُعدّ نقصًا معيبًا في البلاغة فهو تفسير المبهم بالمبهم، والجواب على هذا أنَّ هذا الإبهام هو عين البيان لأنَّ الله لم يشأ أن يحدِّد البشاعة في شيء واحد نعرفه. ومعلوم أنَّ القبح والبشاعة ممَّا تختلف فيه الأنظار، فقد يكون الشَّيءُ قبيحًا عند زيد وحَسَنًا عند غيره فلمَّا قال تعالى ﴿رؤوس الشَّياطين﴾ فإنَّ النَّاس سيتوهَّمونها على اختلاف مذاهبهم لكنْ كلَّهم يعرفون بشاعة الشَّياطين المفزعة بالتَّالي ستتعدَّد ألوان البشاعة وهذا هو عين البيان.

قال الزَّمخشريّ في تفسيره "الكشَّاف": "فيقولون في القبيح من الصُّورة كأنَّه وجه شيطان، كأنَّه رأس شيطان، وإذا صوَّره المصوِّرون جاؤوا بأقبح الصُّور وأهولها".

هذا غيضٌ من فيض وقَطْرَة من مَطْرَة والأمثلة كثيرة ولكلِّ مثال وجه أو وجوه بلاغيَّة. وحسبي بالعقد ما يحيط بالعنق وبالسِّوار ما أحاط بالمعصم من ذكر بعض أمثلة عن بلاغة القرآن مع كثرتها، وكلُّ هذا فيه تحدٍّ فيعجز عن الإتيان به أو بمثله إنس أو جانّ.

البلاغة في شعر التُّراث:

دواوين الشُّعراء تُعدّ المعين الثَّالث للُّغة العربيَّة واللِّسان الفصيح بعد القرآن والسُّنَّة النَّبويَّة القولية. وقد اتُّفق على أنَّ المعلَّقات السَّبع المتفَّق عليها، تحوي بألفاظها ومعانيها الكثير من قواعد النَّحو العربيّ، ثمَّ جاء القرآن ليتمِّمها ويصحِّح ما اعوجَّ منها ويعضد السَّليم ويقوّيه. فكان القرآنُ هو الأصلَ وهو المعينَ الأصحَّ إنْ كان بلاغةً أو نحوًا أو قواعدَ.

جاء الصَّحابة ليؤكِّدوا أنَّ الكثير من الكلمات في القرآن يفسِّرها دواوين الشِّعر إذا لم يرد لها تفسير في القرآن نفسه أو السُّنَّة النَّبويَّة. وهناك قصص كثيرة، آخذ واحدة منها:

يقول عبد الله بن عبَّاس: "إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشِّعر فإنَّ الشِّعر ديوان العرب". وكان ابن عبَّاس كثير إنشاد الشِّعر الجاهليّ ليعضد كلامه في التَّفسير واللُّغة. كذلك عمر بن الخطَّاب من قبل قال: "أيُّها النَّاس عليكم بديوانكم لا تضلُّوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهليَّة فإنَّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم". أورد هذا ابن كثير في "البداية والنِّهاية"، والبيضاويُّ في تفسيره.

إنَّ لغة الجاهليَّة على الإجمال لا تزال مثال البلاغة والخلوّ من الحشو على الرغم من وجود بعض الألفاظ المعقَّدة الغريبة على أفهامنا لكنَّها كانت في عصرهم طبيعيَّة لإلفتها. فلو قرأت قول امرئ القيس:

وإنَّك لم تقطع لبانة خالب
بمثْلِ غُدُوٍّ أوْ رَوَاحٍ مُؤَوِّبِ
بأدماء حرجوج كأنّ قتودها
على أبق الكشحين ليس بمغرب

لو كانت هذه الكلمات غريبة حينئذٍ لما قالها لكن فيها معاني بليغة. والبلاغة عندهم كانت فطريَّة في عرب البادية شعرًا

أو نثرًا لكنَّها كانت ذات عقول راجحة فيها الحكمة والموعظة وصدق النَّظر. بل بكلمات قليلة حكيمة قد يصلح الشَّاعر بين قبيلتين بينهما الدِّماء والسَّبي لكنَّ وقع كلماته وبلاغتها كان له الأثر الأكبر. مع أنَّنا قد نجد خشونة في ألفاظ أهل الجاهليَّة وهذا نتيجة وجودهم في الصَّحراء والجبال والبادية وتعاملهم مع الخيل والإبل والغنم.

ثمَّ جاء عصر صدر الإسلام الَّذي قلَّ فيه الشُّعراء إلَّا من كان من قبل شاعرًا ثمَّ أسلم فسمِّي (مخضرمًا) مثل: (لبيد – حسَّان بن ثابت – الخنساء...) فهؤلاء تأثَّروا بالجوّ الإيمانيّ وبألفاظ القرآن فصارت بلاغتهم الفصيحة متأثِّرة بما آمنوا به والأمثلة كثيرة عندهم. لكنَّني أقف عند بعض الأمثلة من شعراء العصور بعدهم: منهم المتنبّي والحطيئة وبشَّار والفرزدق وأذكر افتخار المتنبّي بنفسه إذ يقول:

أنا تِرْبُ النّدى، وربُّ القوافي
وسِمامُ العِدى، وغيظُ الحَسودِ
لا بِقَومي شَرُفتُ بَل شَرُفوا بي
وَبِنفسي فَخَرتُ لا بِجُدودي

وهذا أعلى أنواع الفخر والأنفة وبعض الكبر، وهو القائل أيضًا:

أَلَمٌ أَلَمَّ أَلَمْ أُلِمَّ بِدائِهِ
إِنْ آنَ آنٌ آنَ آنُ أَوانِهِ

كثيرة هي الأبيات الَّتي فيها البلاغة والحكمة عند المتنبّي.

ومن قبل قال سيِّدنا عليٌّ كرَّم الله وجهه وله أبيات في الحكم والبلاغة والقرآن:

ألوم صديقي وهذا محال
صديقي أحبُّه كلامٌ يُقال
وهذا كلامٌ بليغ الجمال
محالٌ يُقالُ الجمالُ خيال

ومن بلاغة هذه الأبيات غير المعنى أنَّها تُقرأ أفقيًّا ورأسيًّا. ومن كلماته قصيدة فيها حكم:

النَّفسُ تَبكي عَلى الدُّنيا وَقَد عَلِمَت
أَنَّ السَّلامَةَ فيها تَركُ ما فيها
أَموالُنا لِذَوي الميراثِ نَجمَعُها
وَدورُنا لِخرابِ الدَهرِ نَبنيها

وقيل إنَّه قال بيتًا فيه بلاغة وحكمة نادرة:

مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَـوْلٍ
وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

ومهما عددنا من أبيات فهو قليل جدًّا أمام ما قيل. وإنَّني أقف مشدوهًا أمام بيت جميل بل أعدّه من روائع أقوال عنترة حين قاله وهو في أشدِّ الصِّعاب يتذكَّر محبوبته ليصفها:

فَـوَدِدتُ تَقبيلَ السُيوفِ لأَنَّها
لَمَعَت كَبارِقِ ثَغرِكِ المُـتَبَسِّمِ

أو أمام قول طرفة بن العبد الشَّاعر الشَّاب الحماسيّ:

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَـهُ
خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المـُتَوَقِّدِ

أو أمام قول زهير الشَّاعر الحكيم:

وَمَنْ هابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ
وَإِنْ يَرْقَ أَسْبابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وطبيعيٌّ أن نتذكَّر أمير الشُّعراء أحمد شوقي ومعه شاعر النِّيل حافظ إبراهيم وبدويّ الجبل والشَّاعر القرويّ وسليمان العيسى وعمر أبو ريشة والياس فرحات.

هذه هي لغتي وأعلام لغتي وأفخر بها، وأرجو من كلِّ مهتمٍّ أن يجمع ما عنده مع

من يريد إعادتها لما كانت عليه من عزٍّ وعطاء. وهي البحر:

أنا البحرُ في أحشائِهِ الدرُّ كَامِنٌ
فَهَلْ سَأَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتي

أكتفي بهذا الَّذي ذكرته من بعض جماليَّات اللُّغة في القرآن الكريم وبعض صفات البلاغة في القرآن وشعر التُّراث. وإنّني كلّما غصت في بحر هذه الجماليّات، وجدتُني ألتذّ أكثر بصدفاته المليئة زَبَرْجَدًا ولؤلؤًا وفيروزًا يَستلِبُ لُبّي، ليس لمحبّتي فحسب وإنّما لأنّه يروي نفسي الظّامئة لشرب الفصاحة العربيّة مِن مَعينِها وأصولِها.

* * *

الهوامش

* **يُعدّ أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية**

1- صِرامُها: قطيعها وثمارها.

2- **مخرمة** بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف الزهري القرشي أبو صفوان (عالم الأنساب) كان ذا لسان سليط أسلم يوم الفتح وعمِّر طويلًا – مات سنة 54هـ.

3- **أبو الجهم** هو عامر بن حذيفة بن غنم من بني عدي بن كعب اترك في بناء الكعبة مرتين الأولى في الجاهلية والثانية حين بناها ابن الزبير سنة 64هـ. هو من المعمرين مات سنة 70هـ.

4- **حويطب** بن عبد العزى بن أبي قيس من بني عامر بن لؤي. قرشيّ من المعمّرين كان يحارب الإسلام بلسانه وسيفه إلى أن أسلم يوم الفتح ثم شهد مع النَّبيّ صلى الله عليه وسلم غزوة حنين والطّائف، انتقل من مكة إلى المدينة ومات فيها سنة 54هـ.

5- **عقيل بن أبي طالب** (عبد مناف) بن عبد المطّلب الهاشميّ القرشيّ وكنيته أبو يزيد وهو أعلم قريش بتاريخها وأيامها وأنسابها. كان فصيح اللسان شديد الجواب وهو أخو علي وجعفر لأبيهما، وكان أسنّ منهما، كان مشهورًا قبل الإسلام. أسلم بعد الحديبية وهاجر إلى المدينة سنة 8هـ. وشهد غزوة مؤتة وكان الناس يأخذون عنه الأنساب في المسجد النبوي/ت60هـ.

6- **الشنفري:** شاعر جاهلي من بني ربيعة وهو من لصوص العرب، وصاحباه في التَّلصُّص ابن أخته تأبّط شرّا وعمرو بن براق – وكان الثلاثة أعدى العدَّائين في العرب.

7- قائل هذا الوليد بن المغيرة وهو من فصحاء قريش.

8- **الجرجانيّ:** هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانيّ ت471هـ. وهو نحويّ بليغ متكلّم نشأ ولوعًا بالعلم يلتهم الكتب. يُعدّ مؤسس علم البلاغة وله كتب في البلاغة وفي إعجاز القرآن.

9- **الجفنات:** القصعات التي يطبخ أو يعجن بها ويقصد الكرم.

10- هذه القصة وردت عن النَّابغة الذُّبياني حين كان يأتي لسوق عكاظ، وأنشد أمامه حسّان بن ثابت فاعترض عليه، ووردت عند سيبويه في الكتاب.

11- **ابن سينا:** هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، ولد سنة 370هـ في همذان. برع بعلوم الطِّبِ والفلسفة والمنطق وسُمّي الشّيخ الأكبر أو الشّيخ الرّئيس أو أمير الأطبّاء. عاش في بخارى محدّثًا فقيهًا طبيبًا وألَّف الكثير من الكتب.

12- هو أبو الفتح عثمان **بن جني** ولد بالموصل وتوفي فيها عام 392هـ. عالم نحوي تعلم على يد الأخفش وأبو علي الفارسي. سافر إلى حلب والتقى بالمتنبي.

13- **مثعنجرة:** متسعة – **مسحنفرة:** ملأى

14- **إطلخمَّ:** اشتدَّ – **عسواء:** مظلمة – **عُبسًا:** شديدة – **دهاريس:** دواعي

15- **عَنَم:** شجر ليّن الأغصان، وبنان العذارى واحدتها عَنَمَة أي ليّنة طرية. (لسان العرب).

16- **ابن المعتزّ:** هو أحد خلفاء الدولة العباسية هو عبد الله بن المعتز بالله (أبو العباس) كان أديبًا وشاعرًا، ويسمّى خليفة يوم وليلة حيث قُتل من أول يوم عام 296هـ. وهو مؤرّخ شاعر من كتبه: طبقات الشعراء – البديع.

* * *

المصادر والمراجع:

• ابن الأنباري – شرح القصائد العشر الطّوال – تحقيق: عبد السلام هارون – دار المعرفة – بيروت 1993م – ط2.

• ابن جنّي – شرح ديوان المتنبّي – حققه: رضا رجب – دار الينابيع – دمشق – ط1 – 2004م.

• ابن حجر العسقلانيّ – الإصابة في تمييز الصّحابة – تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التّريكي – دار عالم الكتب – دمشق. بيروت – ط2 – 1428هـ.

• ابن منظور – لسان العرب – دار صادر – بيروت – ط3 – 2010

• أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدّمشقيّ – تحقيق أحمد جاد – دار المعارف – 1410هـ – ط3

• أبو حامد الغزالي الطُّوسيّ (ت505هـ)- إحياء علوم الدِّين – دار المعرفة – بيروت – ط3 – 2010م.

• الإمام القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزّوزنيّ – شرح المعلّقات السّبع – ضبط: د. عمر فاروق الطّباع – دار الأرقم – دمشق. بيروت – 1999.

• التّبريزيّ – شرح القصائد العشر الطَّوال – تحقيق: د. فخر الدِّين قباوة – دار الآفاق الجديدة – بيروت – 1980م.

• الجاحظ – البيان والتَّبيين – دار الكتب – بيروت – 1405هـ.

• جبران مسعود – معجم الرّائد – دار العلم للملايين – بيروت – ط7 – 2011م.

• جلال الدِّين السّيوطيّ – الإتقان في علوم القرآن – تعليق: د. مصطفى ديب البغا – ط1 – 1429هـ – دار المصطفى – دمشق.

• حسّان بن ثابت الأنصاري – تحقيق: أ. عبد مهنّا – دار الكتب العلميّة – بيروت – ط2 – سنة 1994م – 1414هـ.

• سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بكر ت180هـ) – الكتاب – تحقيق: عبد السلام هارون – دار الجيل – بيروت – ط1 – 1429هـ.

• سيّد قطب – التصوير الفني في القرآن – دار الشروق – القاهرة – ط4 – سنة 1422هـ.

• صبحي الصّالح – مباحث في علوم القرآن – دار العلم للملايين – بيروت – ط4 – 1965م.

• عبد القادر بن عمر البغداديّ – خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب – تحقيق وشرح: عبد السلام هارون – ط4 – مكتبة الخانجي – القاهرة – 1997م.

• عبد القاهر الجرجانيّ – أسرار البلاغة – تعليق محمد رشيد رصن – بيروت – دار المعرفة – ط1 – 1978م – 1378هـ.

• عبد القاهر الجرجاني – إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام – القاهرة – دار المعارف

• عبد القاهر الجرجانيّ – دلائل الإعجاز في علم المعاني – تحقيق: عبد الحميد هنداوي – دار الكتب العلميّة – بيروت – ط1 – 1428هـ – 2007م.

• عبد الله بن عمر البيضاويّ (أبو سعيد) – تحقيق محمد صبحي حسن الحلاق – دار الرشيد – بغداد – ط1 – 1421هـ.

• محمود بن عمرو الخوارزمي الزمخشري – الكشاف (تفسير الزمخشري) – مجلد واحد – دار ابن حزم – بيروت – ط2 – سنة 1433هـ.

• مصطفى صادق الرّافعي- تاريخ آداب العرب – المكتبة العصريّة – صيدا – بيروت – 1426هـ – 2005م.

* * *



د.فاطمة موسى - وابراهيم الكوني